٧ ـ المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الانجليزي اودرد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

تابع الفصل الأول ـــ الملبوس

أما ملابس الطبقة السفلى فهي جد بسيطة : يلبسون سروالاً فوقه قميص طويل فضفاض ، أو ثوباً أزرق طويل الأكمام من الكتان أو القطن أو من الصوف الأسمر ؛ ويسمى الأول « عريا » والآخر « زعبوطاً » ، وهو يشق ابتداء من الرقبة إلى الوسط تقريباً[1] . ويتمنطق البعض بمنطقة بيضاء أو حمراء من الصوف ؛ والخدم يتحزمون بحزام[2] عريض أحمر اللون من الصوف أو من الجلد وبه عادة كيس لحفظ النقود . وعمامة العامة شال من الصوف أبيض أو أحمر أو أصفر ، أو قطعة من غليظ القطن أو الحرير الموصلي تلف حول طربوش تحته لبدة بيضاء أو حمراء . وبعض الفقراء لا يملكون غير اللبدة ؛ فلا عمامة ولا سراويل ولا نعل . إنما يرتدون الجلباب الأزرق أو الأحمر أو أسمالاً بالية . وعلى النقيض من ذلك يرتدي الكثيرون صديرياً تحت الجلباب الأزرق ؛ ويلبس بعضهم وعلى الأخص خدم العلماء ، جلباباً أبيض وصديرياً وقفطاناً وجبة ، أو أحدها ثم (المرى) الأزرق أخيراً . وتشد أكمام (المرى) الواسعة إلى أعلى بحبل[3] يمر حول كل من الكتفين ويشبك خلف الظهر ويعقد . وقد تعود الخدم (والسواس خاصة) هذه الطريقة ، ويستعملون لها حبالاً من الحرير الأحمر أو الأزرق الفاتح . ويرتدي الكثير من أفراد الشعب في الشتاء عباءة كالتي وصفناها من قبل ، ولكنها أغلظ منها ، وبدلاً من اللون الأسود تكون أحياناً ذات خطوط عريضة حمراء وبيضاء أو زرقاء . وهناك نوع آخر من الأكسية كثير الاستعمال يتخذ من الصوف الأسود أو الأزرق القاتم ، وهو أوسع من العباءة ويسمى «دفية»[1] . أما النعال فهي من الجلد المراكشي الأحمر أو الأصفر أو من جلد الخراف . ونعال السواس تكون من الجلد المراكشي الأحمر القاتم ، ولكن أحذية البوابين والسقائين تكون عادة من الجلد الأصفر

وتمتاز عمامة المسلم باللون عن عمامة القبطي واليهودي وغيرهما من رعايا الباب العالي ، فهؤلاء يعتمون بالأسود أو الأزرق أو الرمادي أو الأسمر الخفيف ، ويلبسون عامة الثياب القاتمة . ويرجع استخدام الألوان لتمييز بين المذاهب والعشائر والأسر المالكة إلى عهد بعيد . فإن الإمام إبراهيم بن محمد لما قتله الخليفة الأموي مروان اتخذ بنو العباس الثياب السود لباساً لهم حداداً عليه ، ومن هنا أصبح سواد اللباس والعمامة الزي المميز للعباسيين وولاتهم . حتى أنهم كانوا إذا غضبوا على عامل حكموا عليه بلبس الأبيض . أما اللون الأبيض فقد اختاره مدعي النبوة (المقنع) ليميز حزبه عن العباسيين ؛ كما اختاره فواطم القاهرة لعدائهم لبني العباس . وكان سلطان مصر الملك الأشرف شعبان الذي حكم من سنة ٧٦٤ إلى ٧٧٨ هجرية ـ ١٣٦٢ إلى ١٣٧٦ ميلادية أول من أمر بتمييز الأشراف بالعمامة الخضراء . ومن الدراويش الرفاعيين من يلبسون عمامة من الصوف الأسود أو من الموصلي الزيتوني القاتم . أما عمامة الأقباط واليهود وغيرهم . فهي عادة من الموصلي أو الكتان الأسود أو الأزرق . والعمامة الغالبة الآن في مصر لا تختلف أشكالها كثيراً . فعمائم الخدم معقدة ذات تلافيف حلزونية مدرجة ، وكذلك عمائم كبار التجار والمتوسطين منهم وغيرهم من سكان العاصمة والمدن الكبيرة ، إلا أنها أقل حجماً منها . والعمامة التركية في مصر أكثر أناقة ؛ والعمامة السورية تمتاز بسعتها . وكان العلماء ورجال الدين والأدب يلبسون العمامة الواسعة الكبيرة

(١) ويلبس الزعبوط في الشتاء غالبا

(٢) يسمى « كمر » (٣) يسمى « شمار »

(١) وهناك نوع من الثياب الزرقاء أو البيضاء يسمى « ملاية » يلبسها بعض الرجال وأغلب النساء ؛ وسنصفها عند الكلام على ملابس النساء ويتشح بها الرجال فوق الكتفين أو حول البدن

ويسمونها « مُقلة » كما ترى فى شكل ١٦ . والعمامة موضع الاحترام والإجلال ؛ فلها فى منازل الموسرين كرسى[1] توضع عليه ليلاً ولا يستعمل لغير هذا الغرض . وكثيراً ما يعد هذا الكرسى فى جهاز العروس ؛ كما كان من المعتاد أيضاً أن يكون للمرأة كرسى آخر لغطاء رأسها . وتحضرنى حكاية قصها على صديق أسوقها إليك مثالاً لمقدار الاحترام الذى يكنه الشعب للعمامة . فقد رووا أن عالماً سقط من فوق حماره فى شارع من شوارع المدينة فتدحرجت مقلته بعيداً عنه . فتجمع المارون وأخذوا يجرون وراء العمامة صائحين : ارفعوا تاج الإسلام ! ارفعوا تاج الإسلام ! بينما كان العالم المسكين طريح الأرض يناديهم منتاظاً : « أنهضوا أولاً شيخ الإسلام »

شكل ١٦
(عمامة العلماء « المقلة »)

* * *

ننتقل الآن إلى وصف هيئة النساء العامة وملامحهن . فالمصريات منذ بلوغهن الرابعة عشرة حتى العشرين ، هن من حيث الجسم مثال الجمال ؛ ومحياهن يسر العين ، ويجذب النفس . ولكن سرعان ما يذوى هذا الجمال بعد أن يستحير الشباب ويستكمل الجسم نموه . وطبيعة الجو تؤثر على طبيعة الصدر قبل الآوان ، فترتخى هيئته وتستوى أجزاؤه ؛ بينما يحتفظ الوجه بكل فتنته . وبالرغم من أن تراخى الزمن لا يذهب رواءهن ، فإن كثيرات منهن متى بلغن الأربعين يصبحن ، ولو كن جميلات فى شبابهن ، قبيحات الصورة كريهات المنظر . وأنوثة المصريات يبدأ نموها عند الخامسة أو العاشرة تقريباً ؛ فتبلغ عنفوانها فى الخامسة عشرة أو السادسة عشرة . ويلاحظ أن سحن النساء كسحن الرجال ؛ إلا أن الشمس لاحتجابهن لا تسفعهن ، ويمتزن بمحياهن البيضى الجميل ، وقد يعرض فى بعضهن . أما العيون فدعجاء ، نجلاء ، لوزية الشكل ، وطفاء الأهداب ، تفيض وداعة تلك النفوس ، وسحراً يسبى القلوب ، ولم أر فيما رأيت عيوناً أجمل من العيون المصرية . ويزيدها جاذبية احتجاب الملامح بالنقاب . وتأثيرها فى النفوس يزيده كحل الجفون كما ترى فى شكل ١٧ . والكحل سناج اللبان العطرى المحروق . ويصنع أيضاً من سناج قشر اللوز . وهذان النوعان مع الاعتقاد بفائدتهما للعين يستعملان للزينة فقط . إلا أن هناك أنواعاً أخرى تستعمل لخواصها الطبية الحقيقية ، وأخصها مسحوق الرصاص[1] ، المضاف إليه المزروت وعرق الذهب وسكر النبات ومسحوق الذهب البندق ، وأحياناً مسحوق اللآلئ . ويقال إن الأثمد كان يستعمل قبلاً لتكحيل أصول الأهداب . وتكحل العين بمرود صغير من الخشب أو العاج أو الفضة ، دقيق الطرف كليل الحد ، يبل أحياناً بماء الورد ثم يغمس فى المسحوق ويمرر بين الجفنين . والوعاء الزجاجى الذى يوضع فيه الكحل يسمى « مُكْحَلة » كما ترى فى شكل ١٨

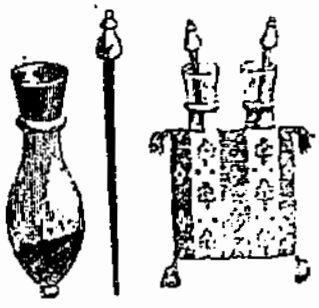

(شكل ١٨ ــ مكاحل ومراود)

وعادة التكحل كانت شائعة بين الجنسين فى مصر القديمة ؛ وهى ظاهرة فى نقوش المعابد والمقابر المصرية ورسومها . وكثيراً ما اكتشف فى المقابر القديمة مكاحل فيها آثار الكحل ومراودها ، (شكل ١٩) . ولكن طريقة التكحل القديمة تختلف بعض الاختلاف عن الطريقة الحديثة كما ترى فى شكل ٢٠ . وقد رأيت فى ضواحى القاهرة نساء يكحلن أعينهن على الطريقة القديمة ، ولم أصادف ذلك إلا مرتين

شكل ١٩
(مكحلة ومرود قديمان)

شكل ١٧
(عين مكحلة)

شكل ٢٠ ــ ز الطريقة القديمة فى التكحل)

(١) يسمى « كرسى العمامة »

(١) « كحل الحجر »

وهذه الطريقة نفسها كانت شائعة فى عقائل الإغريق ونساء اليهود فى قديم الزمن [١] . وعين المصرية على الجملة أجمل ما فى وجهها . ويلاحظ أن جمال الملامح فى المصريات أقل من جمال الهيئة ؛ ولكنى بصرت بوجوه يميزها نوع من الحسن ينم عن حلاوة العذوبة ويعبر عن فتنة الأنوثة ؛ فيأخذ بمجامع القلب إلى حد ينكر الإنسان وقتاً ما أن الله لم يخلق للمصريات مثيلات فى أى بلد آخر . والقليل من النساء يسفرن أمام الغريب مدفوعات إلى ذلك بالرغبة فى إظهار جمالهن وإن ادعين غير ذلك . ومن ثم لا يستطيع الأجنبى أن يبنى رأياً صحيحاً من هؤلاء النسوة . ولكن مثل هذه العيون لا يمكن أن تخلق إلا فى الوجه الحسن ولو كانت تقاطيعه متوسطة الجمال ؛ أما الأنف فمستقيم القنا ؛ والشفاه أغلظ من شفاه الرجال دون أن تصل إلى غلظة شفاه الزنوج ؛ غير أن الفم وغيره من قسمات الوجه تقرب من الجنس الحبشى . وأما الشعر فهو من ذلك الأسود الحالك المصقول الذى يناسب السحن كلها غير السحنة البيضاء ، وقد يكون غليظاً بعض الشئ ، ذا حلق من دون تجعيد

ويخضب نساء الطبقات الراقية والوسطى والكثير من الفقيرات أيديهن وأقدامهن بأوراق الحناء، فتكتسب أطرافهن لوناً أحمر مشرباً بالصفرة ، أو برتقالياً قاتماً . والكثيرات منهن لا يصبغن غير أظافر الأصابع ، وبعضهن لا يتعدين عقود الأنامل ، والبعض الآخر يرسمن خطاً على صف العقود التالية ؛ وغير ذلك من الأشكال الغريبة الأخرى . إلا أن الطريقة الغالبة هى تخضيب أطراف الأيدى والأرجل حتى المفاصل الأولى، وكذلك راحة الكف وبطن القدم [٢] ؛ وأحياناً يضاف خط بجانب المفاصل الوسطى وآخر فوق أصابع القدم بقليل كما ترى فى شكل ٢١ ،

شكل ٢١ (تخضيب الأيدى والأقدام بالحنة)

والخضاب يكون بسحق أوراق الحناء وعجنها بالماء ، ثم تبسط على راحة الكف وأجزاء اليد الأخرى ، ثم تثنى الاصابع وتقبض اليد ، وتربط برباط من الكتان ليلة بطولها ؛ وكذلك القدم . ولا ينصل الخضاب إلا بعد أيام ، فيجدد كل أسبوعين أو ثلاثة أسابيع . وعادة الخضاب ليست قاصرة على مصر ، بل تتعداها إلى بلدان الشرق التى يعونها شاطئ النيل بالحناء

والحناء على الأظافر تكون أكثر لمعاناً وأشد صفاء وأطول بقاء . كما أن تخضيبها أو تخضيب الأصابع يعتبر بحق زينة للنساء ، إذ يحسن لون البشرة ويكسبه رقة . بيد أن بعض النساء يعمدن إلى طرق لا يستسيغها الذوق الأوربى ، فيُعقبن الحناء بمعجون من الجير والسناج وزيت بذر الكتان فيتحول لون الحناء الجميل إلى لون أسود أو زيتونى مشرب بالسواد . وكثيراً ما يلاحظ ميل النساء إلى هذه الطريقة فيُزَيِّنَّ مخضبات الأظافر أو الأصابع بهذا اللون القاتم ، إلا أنهن يتركن العقود الوسطى بحمرة الحناء ؛ والكف على النقيض من ذلك يتوسطه خط عريض أسود ؛ وبعضهن يتبعن أبسط الطرق فيسودن الأنامل وراحة الكف كلها .

(يتبع) عبد الله طاهر نور

(١) وكثيراً ما يستعمل الملقاط لتزجيج الحاجبين وزيادة تقوسهما

(٢) ويقال إن التخضيب له تأثير لطيف على البشرة ، وعلى الأخص بقى الجلد شدة الرخوصة والحساسية

الافصاح

المعجم العربى الفذ ، وهو خلاصة وافية للمخصص وغيره من المعجمات ، يرتب الألفاظ العربية على حسب معانيها ، ويسعفك باللفظ للمعنى المراد ، يعين العلماء على وضع المصطلحات العربية فى العلوم المختلفة ، ولا يستغنى عنه مترجم ولا أديب ، ٨٠٠ صفحة تقريباً ، طبع دار الكتب ، أشرفت طبعته على النفاد ، ثمنه ٢٥ قرشاً يطلب من مجلة الرسالة ومن المكتبات الكبيرة

ومن مؤلفيه :

حسين يوسف موسى — المدرس بالمدرسة السعيدية الثانوية بالجيزة

عبد الفتاح الصعيدى — رئيس التحرير بمجمع فؤاد الأول للغة العربية